د. عبد الودود شلبي

صوت الإسلام يرتفع من موسكو



للنشر والتوزيع والتصدير
١٦ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
ت ٥٩١١٣٧١ - فاكس ٥٩١١٣٧١ - ص.ب ١٧٠٧ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤتمر العالمي
عن الإسلام والتفاهم بين مختلف الأديان والشعوب

تحت إشراف

هيئة اليونسكو ـ أكاديمية العلوم الروسية

ولجنة مسلمي آسيا

رؤية إسلامية

لتحقيق هذا التقارب والتفاهم

دكتور عبدالودود شلبي

القاهرة

موسكو ـ روسيا

٢٥ ـ ٣٠ ذو الحجة ١٤١٥ هجرية

٢٥ ـ ٣٠ مايو ١٩٩٥ ميلادية

موسكونا .. أو موسكو

ارتفع صوت المضيفة فى جنبات الطائرة يعلن قرب وصولنا إليها وهبوطنا فى مطارها.

لم يكن ذلك ممكنا قبل أن تسقط الشيوعية، ولا قبل أن ينسحب الاتحاد السوفييتى من أرض أفغانستان المسلمة..

وقد لا يعرف الكثيرون من الاخوة أو القراء.. أنه كان لى مع الشيوعية موقف، وكان لهذا الموقف آثاره الخطيرة كما سوف تعرف.

ففى عام ١٩٦٥م.. وفى شهر أغسطس من هذا العام بالذات، نشرت فى مجلة "نور الاسلام" التى كنت أشرف عليها آنذاك نشرت (فتوى) تحرم الزواج بين الشيوعى وأية فتاة مسلمة أو بين المسلم وأية فتاة شيوعية..!!

كانت هذه الفتوى ردا على سؤال من احدى المذيعات فى البرامج الموجهة من القاهرة وقد سألتنى هذا السؤال بعد أن تقدم لخطبتها شاب تعرف أنه شيوعى. وكان من الممكن أن تنسى هذه الفتوى كغيرها من فتاوى كثيرة فى أضابير المجلة، أو فى عقول قرائها الطيبين الذين يعيش معظمهم فى "الكفر" أو "العزبة، أو "القرية"..!!

ولكن الله ـ جلت حكمته ـ أراد لهذه "الفتوى" ذيوعا لم يكن

متوقعا، وانتشارا وضجيجا بلغ أركان الدنيا..

لقد زارنى فى مكتبى مصادفة الأستاذ محمود الكولى محرر الشئون الدينية فى صحيفة الأهرام، وماكادت عيناه تقع على صورة الفتوى وهى لا تزال "بروفة" قبل الطبع. حتى هجم عليها وطلب صورة منها. ثم طار بها إلى صحيفة الأهرام التى نشرتها فى اليوم التالى وفى صدر صفحتها الأولى..!

وفى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم الذى نشرت فيه الصحيفة هذه الفتوى.. كنت أستمع إلى النشرة المسائية فى محطة الاذاعة البريطانية.. فإذا بخبر هذه الفتوى يتصدر هذه النشرة بل كان الخبر الأول فيها..

لم أنم تلك الليلة..! وكيف أنام بعد أن تطايرت شظايا هذه القنبلة فى كل قطر وعاصمة.. وقد قامت الدنيا فى القاهرة المحروسة.. وانطلق زبانية الشيوعية يندون بالأزهر وشيخه فى ذلك الوقت المرحوم الشيخ حسن مأمون ـ وبالرجعية التى تقف فى وجه التحول الاشتراكى مع ماركس وانجلز ولينين...!!!

***

كان الرئيس عبدالناصر على موعد للقيام بزيارة إلى موسكو بعد أسبوع.. وهذا الذى نشر يمكن أن يفسد هذه الزيارة أو على

الأقل يبطل مفعولها وأثرها فى الاستجابة لمطالب مصر من الاتحاد السوفييتى الذى كان يمثل فى هذا الوقت "كل شىء" بالنسبة للقادة أو الساسة؟!

وأشهد.. وعلى الرغم مما أصابنى فى عهد الرئيس عبدالناصر أن نشر هذه الفتوى وبهذه الصورة، وفى جريدة الأهرام التى كان يرأس تحريرها محمد حسنين هيكل وفى الصفحة الأولى، وفى العمود الأول منها..

أشهد.. بأن "عبدالناصر" لم يكن شيوعيا..!! وإلا.. لو كان هو كذلك.. لدفنت قبل أن يطلع الفجر! هذا إن لم يختف البيت والشارع الذى كنت أسكن فيه من على ظهر الأرض..!!!

***

وأذكر وللتاريخ أيضا...

إن الصديق اللواء ـ المرحوم ـ عاطف سعد السكرتير المساعد للمؤتمر الإسلامى قبل اختفائه.. حضر إلى مكتبى بعد ثلاثة أيام من صدور هذه الفتوى.. كان معه رجل أخافنى مظهره المتصلب.. وعيناه اللتان لا تطرفان بعد أن يصوبها إلى وجهك..!!!

لقد قال لى اللواء عاطف ـ رحمه الله ـ

ـ من أصدر هذه الفتوى..؟

- قلت له مترددا.. ولماذا ؟
- قال اللواء عاطف جئت لأقبل يده..!!!
- "(ياما أنت كريم يارب)"..؟!!!
قلت ذلك فى نفسى بعد أن أخبرنى بأن التيار الأقوى فى رئاسة الجمهورية. يؤيد ويساند هذه الفتوى..!!
وأن المعارضين لها قلة معروفة بالانحياز والولاء لموسكو...!!!

***

بل حدث فى معتقل "مزرعة طرة" حيث كنت معتقلا آنذاك.. أن دعيت للاشتراك فى محاضرة من تلك المحاضرات التى كانت تنظمها "المباحث العامة" لتوعية المعتقلين فى هذا المعتقل.
- كان - حسين عاشور - زميلا لى فى هذه المزرعة!
لقد قلت فى هذه المحاضرة: إننا مسلمون. وسنبقى مسلمين. ولن يكون للشيوعية والشيوعيين مكان فوق ارض مصر المسلمة..!! وإننى كمسلم.. أعتبر نفسى قريبا من المسيحى الذى يؤمن بوجود الله - من الشيوعى - حتى وإن كان هذا الشيوعى يحمل اسما مسلما أو ولد فى بيت مسلم!!!!

***

لقد هاج الشيوعيون فى المعتقل.. وكانوا مجموعة صغيرة من

"الماويين".. أى من الذين يعتنقون الشيوعية على مذهب "ماوتسى تونج" وسمعهم المعتقلون وهم يهتفون بسقوط "عبدالودود جونسون".. وكان "جونسون" هو الرئيس الأمريكى فى هذا الوقت...!!!

فهل كان من الممكن أن أزور موسكو ولى عندها هذا الملف...؟!!!

وإذا كان الشيوعيون يهتفون بسقوطى فى مصر.. وفى داخل سجن فماذا يفعل بى الشيوعيون فى موسكو لو وقعت فى الفخ...!!!

ومنذ ستة أعوام التقيت فى حفل عشاء أقامته دار الشروق تكريما للمفتى " (بابا خانوف)".. التقيت بالمستشار السياسى السوفييتى فى القاهرة... لقد سر الرجل بمعرفتى وتمنى لو قبلت دعوة لزيارة الاتحاد السوفييتى..؟

فاعتذرت بأدب.. ووعدته بالاستجابة لهذه الدعوى بعد انسحاب الاتحاد السوفيتى من أرض المسلمين والعرب..!!!

***

إن "موسكو" كمدينة.. لا أكرهها.. فروسيا وبالرغم من التصاقها بالغرب دولة نصف شرقية.. وشعبها خليط من شعوب

وقوميات يربطنا بها إيمان وعقيدة .. حتى سيبيريا . التى كانت منفى لكل من يفكر فى الحرية، أو يتفوه بكلمة يشتم منها رائحة التمرد أو الثورة.. سيبيريا هذه .. لنا فيها أشقاء واخوة، وفيها مساجد ومعاهد ترفع صوت الإيمان والعقيدة..

تقول إحدى الروايات: أنه عثر على سبعة من الدعاة والأئمة طمرتهم الثلوج وهم فى طريقهم إلى إحدى مدن سيبريا، وكانت المفاجأة عندما كشفوا عن جثثهم أن رأوا أكفهم مرفوعة إلى السماء كمن ينطق بالشهادتين قبل أن يفارقوا هذه الدنيا!!!

وبالرغم من هذا كله.. كنت أحب رؤية موسكو.. لم أكن أشعر بنفور داخلى من رؤية هذه المدينة.. أما لماذا..؟ فلأن الكراهية والحب عاطفتان تتسمان بالتمرد، ولا تخضعان لميزان العقل والمنطق..؟

مثلا.. لا أجد حافزا واحدا يدعونى لزيارة أمريكا..!! أما لماذا فإنى.. لا أجد لهذا النفور حتى هذه اللحظة سببا واحدا معقولا..

"فالرجل" كما يقول المثل الشعبى (تدب مطرح ماتحب) وإن كنت فى الواقع لا أكره الشعب الأمريكى أبدا..

إن معظم من عرفتهم من الأمريكان.. يتسمون بالطيبة .. أقصد عامة الشعب ـ لا رجال الدين ولا المخابرات ولا السياسة ..!!

بل إن كل أصدقائى الذين زاروا أو عاشوا فى أمريكا يؤكدون هذه الحقيقة.

حقيقة هذه "الطيبة" التى استغلتها الصهيونية لأغراضها الخبيثة ولكن بالنسبة لى فإن الأمر مختلف جدا.. وقد دعيت مرتين قبل ذلك من جهات علمية.. ودينية. ومنذ حوالى عشرة أشهر اتصلت بى السيدة الفضلى. المستشارة الثقافية فى السفارة الأمريكية لإلقاء محاضرات فى جامعة "هارفارد" عن الإسلام والشريعة..

إنها دعوة كريمة من سيدة كريمة هى المسز رانسوم.. وجامعة هارفارد هى أهم جامعة فى أمريكا.. ولكن ما الحيلة. إذا كان قلبى يتصور أمريكا (بعبعا) مخيفا.. ويتصور شوارعها ومدنها "غابة" تصول فيها الوحوش جيئة وذهابا...!!!

لم أشعر بمثل هذا الخوف وأنا أخطو أولى خطواتى فى شوارع موسكو.

هذا وبالرغم من تحول هذه المدينة إلى "مافيا"..!! وإلى عصابات تهدد حياتك وأمنك نهارا وليلا..!!!

فى "فندق" كوزموس أى الفضاء باللغة الروسية. وقد اختاروا لهذا الفندق هذا الاسم لوجود نموذج مجسم لأول صاروخ فضاء أطلق

عليه هذا الإسم قريبا من الفندق .. كانت التعليمات من ادارة الفندق ألا تفتح الباب لأحد لا تعرفه..! وأن تتأكد دائما من اغلاق غرفتك بعد أن تدخل إليها أو تخرج..

الشيء الوحيد الذى لم يكن عليه قيد هو "الهوى"..!!!

كدت أبكى. حين رأيت فتاة صغيرة فى سن السادسة عشرة وهى تعرض نفسها علنا..!!! إننى أنظر إلى مثل هذه البائسة نظرتى إلى أى فتاة أو امرأة فى هذه الدنيا.. إن "(عرض)" البشرية من وجهة نظر الإسلام واحد ! ...وإن امتهان عرض أية فتاة أو امرأة ـ تحت ضغط الفقر والحاجة ـ هو امتهان لـ "عرض" البشرية كلها..!!!

***

وروسيا الاتحادية كما قال أحد المسئولين فى قاعة المؤتمر الذى سافرنا من أجله.. روسيا الاتحادية. كما قال هذا المسئول دولة مسيحية إسلامية.!

فالمسلمون فى روسيا الاتحادية يمثلون حوالى ١٤٪ من مجموع السكان.. إن فى موسكو العاصمة وحدها حوالى مليون مسلم. . وهناك جمهوريات إسلامية كثيرة تقع داخل روسيا منها جمهوريات: تتاريا. وبشكيريا. وموروفيا، وتشوفاشيا،

وداغستان، وجمهورية القرم، وجمهورية الشيشان، وجمهورية كباردیا ، وجمهورية قرتشای.. صحيح.. انها جمهوريات صغيرة ، ولكنها بالنسبة لروسيا تمثل أهمية من حيث الموقع والشروة وقد نشرت مجلة التايم الأمريكية فى عدد ١١ إبريل ١٩٨٨م بحثا تاريخيا عن انتشار المسيحية فى روسيا بمناسبة مرور ألف عام على دخول المسيحية إلى روسيا.. تقول المجلة:

لقد أصبحت المسيحية الدين الرسمى فى روسيا منذ عام ٩٨٨م عندما قرر الأمير فلاديمير اعتناق المسيحية واعتبارها الدين الرسمى للدولة. ولكن قبل أن يحدث ذلك.. كانت هناك محاولات جادة من قبل الروس لاعتناق الإسلام.

وتقول الروايات التاريخية: إن من الأسباب التى صرفت هؤلاء الروس عن المضى فى هذه المحاولة أنهم ـ أى الروس ـ علموا بأن الإسلام يحرم الخمر وهم لايستغنون عن الخمر.

هذا بالاضافة إلى أسباب أخرى ترجع فى مضمونها إلى التقاليد الإسلامية العريقة وفى أسلوب الحياة الذى يجب أن يكون تطبيقيا عمليا لأحكام الدين والشريعة وبخاصة فى مجال التطهر.. والنظافة..

***

وقد حكم التتار المسلمون موسكو أكثر من قرنين وكانت ولاية موسكو تدفع الجزية لهؤلاء التتار سنويا..؟!

ومن العجيب أن المسلمين التتار الذين التقيت بهم فى موسكو يختلفون عن "تتار" المغول الذين خرج من بينهم "هولاكو" و "جنجيز خان" و"تيمورلنك" أو تيمور الأعرج.. !!! يختلفون عنهم فى كل شيء فى طول القامة. وبياض البشرة وجمال الصورة.. لم أصدق وأنا أرى الفتيات المسلمات من تتار روسيا. وقد كساهن الحجاب جمالا فوق جمالهن.. وكن أشبه بالفراشات اللاتى يبهرك خفّتهن ورشاقتهن.!! لم أصدق أن هؤلاء تتار أبدا.

سألت" إلدار" الشاب التتارى المسلم الذى يعمل فى اذاعة "الرسالة" التى أنشأتها" (لجنة مسلمى آسيا)" ويديرها الأخ الدكتور عبدالله سعد.

قلت له: الدار.. ـ أى ياصاحب الدار باللغة التتارية. من أنتم؟ ومن أين جئتم؟

فقال لى: نحن تتار بلغاريا.. لا تتار منغوليا.. ولا يحتاج المدقق الفاحص إلى دليل للتمييز بيننا وبين تتار منغوليا.

ومن العجيب أن "تتار" روسيا هم الذين قاموا بنشر الإسلام فى معظم الولايات الاسلامية الداخلة ضمن اتحاد روسيا. بل أن هؤلاء

التتار هم الذين حملوا الإسلام إلى "سيبيريا" وغيرها من الأطراف البعيدة فى روسيا.

ولكن متى دخل الإسلام إلى تتاريا؟

يقول المؤرخون:

لقد وصل الإسلام إلى (تتاريا) فى بداية القرن الرابع الهجرى عندما وصل التجار المسلمون إلى حوض نهر الفولجا، وأسلم شعب البلغار، وأرسل إليهم الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ هـ - ٣٢٠هـ) من يفقههم فى الدين وكان الإسلام يسود منطقة الحوض الأدنى من نهر الفولجا، بل تجاوزها إلى منطقة القرم فى شمال البحر الأسود.

- غير أن الدفعة الأساسية للدعوة الإسلامية فى حوض الفولجا وصلت باسلام التتار، فعندما احتلها قياصرة روسيا فى سنة (٩٦٠ هـ - ١٥٥٢م) كان الإسلام منتشرا بين سكانها، واضطهد أهلها، وحاول الروس جذبهم إلى المسيحية بالقوة والقهر ولكنهم فشلوا، ولقد بذلت الامبراطورة كاترين الثانية جهودا جبارة فى هذا المجال فى سنة (١١٩٢هـ - ١٧٧٨م) فأمرت بأن يوقع كل الذين اعتنقوا المسيحية على اقرار كتابى يتعهدون فيه بترك خطاياهم وتجنب الاتصال بالمسلمين الكفار.

وقد طبق هذا بالقوة على التتار المسلمين ولكنهم كانوا

مسيحيين اسما، ثم تخلصوا من هذا التعسف، وظلوا على إسلامهم ولقد دونت اسماؤهم في السجلات المسيحية زورا ووقف التتار في ثبات وقوة ضد المنصرين وحملاتهم، وشهد القرن التاسع عشر الميلادى عدة قوانين تحد من انتشار الدعوة، لدرجة أن القانون الجنائى الروسى كان يعاقب كل شخص يتسبب فى تحويل مسيحى روسى إلى الإسلام بالأشغال الشاقة، ورغم هذا انتشرت الدعوة بصورة سرية، ولما صدر قانون حرية التدين فى روسيا فى سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) سنحت الفرص للدخول فى الإسلام بصورة جماعية، وقد بلغ عدد من أعلنوا اسلامهم فى سنة (١٣٢٤هـ ١٩٠٦م) ثلاثين وخمسين ألفا.

وهكذا أخذت الدعوة الإسلامية فى الانتشار، ودخل السكان فى الإسلام أفواجا وسارت الدعوة الإسلامية قدما فى حماسة بالغة وكان كل مسلم داعية إلى دينه، ولقد خدمت الدعوة الإسلامية هجرة جماعات ممن احترفوا الحياكة فى القرى الاسلامية فى زمن الشتاء، واعتنق هؤلاء الإسلام، وعند عودتهم إلى قراهم تحولوا إلى دعاة للإسلام، وأثمرت دعوة التتار أنصارا فى سيبيريا وغيرها، وقبل استيلاء السوفيات على السلطات كان فى مدينة "قازان" عاصمة جمهورية تتاريا جامعة إسلامية بها سبعة آلاف طالب فى مستهل

القرن العشرين ـ وكان بها مطبعة أخرجت مليون نسخة من مائتين وخمسين كتابا فى سنة (١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م)، كما كان بمدينة قازان مكتبة اسلامية، كان يزورها عشرون ألف قارىء سنويا، وانتشرت المساجد حتى بلغت مسجدا لكل ألف مسلم فى جمهورية تتاريا...!!

***

وهكذا كان الإسلام مزدهرا بتتاريا قبل الثورة الماركسية فى روسيا ولقد نشأ فى قازان مركز للدعوة الإسلامية واجتهد علماء قازان فى الدعوة وطبعوا منشورات لها، واهتموا بالتعرف على الإسلام واجتهد علماء قازان فى الدعوة وطبعوا منشورات لها، واهتموا بالتعرف على الإسلام باللغة التتارية، وانتشر الدعاة (مليات) وطلاب جامعة قازان فى القرى والفيافى يدعون الناس للاسلام، ونشطوا فى هذا الأمر بعد صدور قانون حرية التدين فى روسيا فى سنة ١٩٠٥م، ونجحوا فى بث الدعوة الإسلامية بين تتار سيبريا.

وبعد أن استولى السوفيات على الحكم، انقلبت الأوضاع، وواجه التتار حربا قاسية على معتقداتهم، فأغلقت المدارس الإسلامية ودمرت المكتبات والمطابع الإسلامية فى قازان عاصمة تتاريا، وواجه

المسلمون مواقف مؤلمة وثاروا ضد الاضطهاد الدينى، وقدموا العديد من الشهداء، حتى أولئك الذين تعاونوا مع الشيوعيين فى البداية، مثل السلطان "على أوغلى" والذى دعاه السوفيات باسم عالياف، وقد نادى بتوحيد المسلمين فى روسيا فى كيان دولة واحدة تتحد مع السوفيات على مستوى واحد، فقبض عليه فى سنة (١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م)، وأعدم فى سنة (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م) ولقد رفض السوفيات وحدة الأراضى الإسلامية بل أخذوا يجتهدون فى تفتيتها إلى قوميات للقضاء على هذه الوحدة...!!

***

ولقد أدمج الروس كل المناطق الإسلامية التى توجد فى روسيا الأوروبية فى ادارة دينية واحدة مقرها فى مدينة "أوفا" عاصمة جمهورية بشكيريا، وتشرف على المسلمين فى سيبيريا أيضا، وجردوا هذه الادارة من كل السلطات فأصبحت أمرا شكليا..

***

إن أكثر المذاهب الإسلامية انتشارا فى الاتحاد الروسى هو المذهب الحنفى يليه المذهب الشافعى ثم مذهب الشيعة الجعفرى.

وأهم الطرق الصوفية فى الاتحاد السوفيتى هى:

(١) الطريقة النقشبندية.

(٢) الطريقة الشاذلية.

(٣) الطريقة القادرية.

ولهذه الطرق الصوفية ـ فى وقتنا الحاضر ـ تأثير كبير على احياء الروح الإسلامية، والاعتزاز بالشخصية الإسلامية، وفى مواجهة التيارات الالحادية والمادية.

بل إن مجلة "التايم الأمريكية" نشرت تقريرا لها منذ سبعة أعوام سلطت فيه الأضواء على ماتقوم به هذه الطرق الصوفية من أنشطة حافظت على الروح الإسلامية وخرجت بها من محنة الالحاد إلى روضة الإيمان والعقيدة.

***

قال لى واحد من أهل الخبرة:

إن فى روسيا الآن فراغا روحيا يبحث عمن يسده.. لقد أدى انهيار الشيوعية إلى انهيار كل شىء.. السياسة.. الاقتصاد. الأمن. والكنيسة.. فالكنيسة لم يكن لها دور ابان الحكم الشيوعى.. بل كانت من بين الممالئين لهذا الحكم فى الظاهر على الأقل.. مما جعل الناس ينظرون إليها كإحدى المؤسسات المندمجة فى ديوان الحكم.. بل إحدى أدواته التى كان يسخرها لاغراضه فى أى وقت..

والفرصة متاحة أمام الإسلام.. ولكن أين هم الدعاة المسلمون الذين تناط بهم هذه المهمة أو يقومون بأداء هذه الرسالة. لقد

تسـابقت بعض الدول الإسـلامـيـة إلى نشـر المذهب لا إلى نشـر الدعوة..!!!

وقد سمعت قصصا حزينة ومؤلمة عما أدت إليه هذه السياسة من تخريب العمل الإسلامى وتمزقه وتأجيج نيران الفتنة بين المسلمين الذين لم تلتئم جراحهم من الجزار الشيوعى الذى لايزال شبحه ماثلا أمام الأعين..!!!

***

إن المصيبة الكبرى فى وجود هؤلاء الغلاظ الأكباد على الساحة .إن الكارثة محققة ـ لو استمر هذا الأسلوب ـ على وحدة المسلمين فى العالم كله.. نحن فى حاجة إلى وقـفـة أمـام طوفـان الجـهـالة والتعصب والذى يزحف مدعوما بالمال الأسود..!!!

إن هذه الأمة تبحث عن قائد.. عن إمام هاد يلم شملها المبعثر وينقذها من أيدى هؤلاء الأدعـيـاء الذين فـقـدوا مـواهب الارشـاد والنصح، وحرموا من أية موهبة تمكنهم من التحدث أو القول..!!!

لهـذا .. كـان من أهم القـرارات التى صـدرت عـن هذا المؤتمر " (انشـاء مـجلس اسـلامى أعلى لمسلمى روسـيـا الاتحـادية)" مـجلس أعلى لكل المسلمين. تلتقى فيهم كلمتهم على هدف موحد وعلى رؤية إسلامـيـة مـسـتـنيـرة تتـجـاوز التـعـصب لهـذا المذهب أو هذا

المذهب. رؤية إسلامية يتفق عليها الجميع للنهوض بالدعوة، والخروج بها من هذا المأزق..

***

وها هى " موسكو" تتراءى أمام عينى الآن من نافذة الطائرة.. كانت الشمس ساطعة. ودرجة الحرارة كما تقول مضيفة الطائرة فوق الثلاثين درجة..!

لقد فوجئنا.. جميعا بصدمة.. فقد كانت حقائبنا محشوة بالمعاطف والأردية الصوفية الثقيلة.. كنا نتوقع ثلوجا يتجمد منها البدن..!

فإذا بالناس يسيرون نصف عرايا فى الشوارع، وإذا بشبابنا التى حملناها معنا من القاهرة تتحول إلى "زنازين" يختلط فيها العرق بالروائح..!!!

موسكو خدعتنا.. وهذا الخداع عادة روسية قديمة كما تقوم مجلة التايم.. غير أن الخداع لا يصمد طويلا أمام وهج الحقيقة.. حقيقة الإسلام التى تألقت فى مؤتمر "(الإسلام والتقارب والتفاهم بين الشعوب والأديان)" والتى كان من ثمرتها هذه المحاضرة التى سوف تنتقل إليها مباشرة من الآن..!!

الباب الثانى

فى "البدء" كان "الكلمة" كما يقول الكتاب المقدس. فأى كلمة تلك التى أبدأ بها حديثى معكم؟

إنها السلام عليكم..

أجل السلام عليكم..

فمن أجل هذا (السلام) جئنا إلى هذا المؤتمر..

وهل كانت رسالة الأنبياء والرسل إلا سلاما إلى جميع البشر..

سلام بين الانسان وربه..

وسلام بين الانسان ونفسه...

وسلام بين الإنسان وأخيه الانسان مهما يكن لونه، أو عقيدته.. أو جنسه..

والاسلام.. والسلام كلمتان مشتقتان من مادة واحدة..

يقال : أسلم الرجل أى دخل فى الاسلام..

كما يقال: أسلم الرجل إذا دخل فى السلم أى السلام..

ولهذا كانت تحية المسلمين فيما بينهم بالسلام..

وختام الصلاة بينهم يكون بالسلام..

وقد نزل القرآن في ليلة كلها سلام (١)..

وتحية الله للمؤمنين يوم يلقونه سلام (٢)..

وجنة النعيم في الدار الآخرة اسمها دار السلام(٣)..

ومن أسماء الله الحسنى التي ندعوه بها الملك.. السلام (٤).

***

لقد سجل المؤرخ والفيلسوف الامريكي ويل ديورانت عدد سنوات الحرب التي خاضتها البشرية فوق هذه الارض فوجدها ٣٤٢١ "ثلاثة آلاف وأربعمائة وواحدا وعشرين عاما" بينما لم تزد سنوات السلام والهدنة عن ٢٦٨ "مائتين وثمانية وستين عاما"(٥)..

لقد قتل في الحرب العالمية الأولى ١٠ "عشرة" ملايين نسمة.

بينما قتل في الحرب العالمية الثانية ٧٠ "سبعون" مليون نسمة منهم ٢٤ "أربعة وعشرون" مليونا قتلوا هنا في روسيا..!

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية قتل أكثر من ٣٠ "ثلاثين

---

(١) سورة القدر وهي السورة رقم ٩٧ في القرآن.
(٢) سورة الاحزاب - ٤٤.
(٣)سورة الانعام - ١٢٧.
(٤) سورة الحشر - ٢٣.
(٥) كتاب (الاسلام وخرافة السيف) - للباحث - نقلا عن قصة الحضارة - لـ (ويل ديوارنت)..

مليونا فى حروب اقليمية مختلفة..

وكما تقول هيئة الأمم المتحدة: إن ثلاثين ألف نسمة يموتون صباح كل يوم بسبب الفقر والمجاعة.. وبلغ مخزون الأسلحة النووية مايكفى لتدمير العالم خمس مرات. كما بلغ نصيب كل انسان يعيش فوق هذه الأرض من مخزون هذه الأسلحة خمسة أطنان من المتفجرات..!!!

فأى كارثة تلك التى يواجهها الانسان فى هذا العصر لو سارت الحياة على هذا النحو؟

فليكن مؤتمرنا هذا بداية لسلام حقيقى بين جميع البشر. فليس منا أحد يستطيع أن يعيش غريبا عن الناس كل الغربة، لقد أصبح عالمنا الذى نعيش فيه قرية صغيرة، ولم يعد من الممكن الانكفاء - على الذات - فى عزلة أو قطيعة..

ومن هنا تأتى أهمية هذا اللقاء.. وأهمية مايقال فى هذا اللقاء(١)..

---

(١) لقد ظهر فى أمريكا كتاب اسمه (حضارة المايا) وفى هذا الكتاب يتحدث المؤلف عن ابادة مائة مليون من البشر من ابناء هذه الحضارة الذين كانوا يسكنون امريكا الشمالية والجنوبية على أيدى أبناء أوروبا المسيحية..! وقد تكررت هذه المذابح فى استراليا ضد سكانها الأصليين من شعب (الابوريجنال).

إن البشر ـ كما يقرر القرآن ـ إخوة.. وأبناء لأب واحد وأم واحدة:

"(يا أيها الناس: اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها. وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)(١).

" (يا أيها الناس: إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) (٢)..

والانسان فى كتابنا السماوى المقدس هو أكرم مخلوقات الله وخليفته فى أرضه.

"(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا:" أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إنى أعلم مالا تعلمون)(٣)..

ولأنه: أى : الانسان خليفة عن الله فى الأرض. وكان أكرم مخلوقاته بين الناس. فما نراه حولنا فى هذا الكون من عوالم. عالم النجوم والكواكب. وعالم الحيوان والنبات. وعالم الطير والجماد.. وكل ماعرف فوق سطح هذه الأرض من جبال وبحار وماخفى فى أعماقها من معادن وثروات كل هذه العوالم خلقت من أجل هذا الانسان وسخرت بارادة الله لتكون فى خدمة هذا الانسان..(٤)..

---

(١) سورة النساء ـ ١. (٢) سورة الحجرات ـ ١٣. (٣) سورة البقرة ـ ٣٠

(٤) أنظر فى هذا الموضوع كتاب (من روائع حضارتنا) ـ د/ السباعى ـ و(النظام السياسى فى الدولة الاسلامية) ـ د/ محمد العوا.

"(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره.. إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون")(١)..

"(وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون. وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون)(٢).

***

ولأن البشر كلهم أخوة، وكرامتهم عند الله واحدة، فقد محا الإسلام بكلمة واحدة كل أسباب التفرقة، وأسقط كل المزاعم التى تميز انسانا على انسان بالجنس أو اللون أو الطبقة.

"(إن أكرمكم عند الله أتقاكم)" (٣).

***

أجل.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم... هذا هو الميزان الحق الذى يوزن به الناس..فالعدالة الإسلامية ترفض أى امتياز لإنسان على آخر بسبب اللون أو الجنس.. ولم يؤثر أو يعرف عن مفكرى الإسلام

---

(١) سورة النحل ـ ١٢ (٢) النحل ـ ١٣ :١٥. (٣) الحجرات ـ ١٣.

أو فقهائه قول يخالف هذه القاعدة التى أرسى قواعدها القرآن والنبى (صلى الله عليه وسلم).. ولم يقل أحد من المسلمين ما قاله (منتسكيو) عن الجنس الأسود بأن الله ـ جل وعلا ـ أحكم من أن يضع روحا فى جسد أسود.(١)...!!

ولم يقل أحد من المسلمين ماقاله (الكونت الفرنسى جوزيف آرثر) بأن (كل شىء عظيم أو نبيل أو مثمر فى أعمال الانسان على ظهر هذا الكوكب، فى الفن والحضارة، يصدر من نقطة انطلاق واحدة، وينتج عن تطور جرثومة واحدة... وينتمى لأسرة واحدة بعينها سادت فروعها المختلفة فى جميع أقطار العالم المتحضرة... فالتاريخ يبين أن الحضارة بأسرها مصدرها الجنس الأبيض، وأنه لا يمكن لأية حضارة توجد بغير عونه، وأن أى مجتمع لايعظم ولا يتألق إلا إذا حافظ على دم الجماعة النبيلة التى خلقته(٢)..

***

إن الإسلام ينظر إلى الانسانية كحديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها دون أن يكون للون فضل على لون.. أو لصورة على صورة..

---

(١) د/ عبدالعزيز كامل ـ التفرقة العنصرية ـ القاهرة ١٩٦٣م

(٢) دروس من التاريخ ـ (ويل ديورات) الطبعة العربية

استمع إلى هذا الحديث الذى يقول فيه النبى (صلى الله عليه وسلم): "(أنا سابق العرب.. وصهيب سابق الروم ـ وكان رقيقا من الروم ـ وسلمان سابق الفرس ـ وكان رقيقا من الفرس ـ وبلال سابق الحبش ـ وكان أسود رقيقا من الأحباش)"

ويقول النبى (صلى الله عليه وسلم):

"(لينهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن عند الله أهون على الله تعالى من الجعلان.. الحرباء)"...

فليس لعربى على عجمى فضل...

وليس لعجمى على عربى فضل..

وليس لأسود على أبيض فضل..

و.. لأبيض على أسود فضل.. ألا بالتقوى(١).. بل نقرأ:

إن أبا سفيان ـ وكان من أشراف قريش المحاربين للاسلام ـ مر على سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى وبلال الحبشى ـ فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله.. وسمع ذلك أبو بكر فقال:

أتقولون هذا لشيخ قريش؟

وذهب أبو بكر وأخبر النبى (صلى الله عليه وسلم) بما سمع وبما

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام. وامتاع الاسماع. وغيرهما من كتب السيرة النبوية. والبخارى ومسلم.

قال:

فقال النبى لأبى بكر:

" (يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك...)"!!

فأتاهم أبو بكر وقال:

ـ يا اخوتاه أأغضبتكم؟

ـ ما غضبنا يغفر الله لك...

وكان عمر يقول:

"(أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ـ يعنى ·بلالا) الذى كان رقيقا..)"..

وقد تزوج بلال أخت عبدالرحمن بن عوف (القرشى التاجر الكبير...

وأعتق الإمام الحسين جارية ثم تزوجها فكتب إليه معاوية يقول:

كيف تتزوج جارية؟

فقال له الإمام الحسين:

لقد رفع الله بالاسلام الخسيسة ووضع عنا به النقيصة..

***

والقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يعترف بما سبقه من

الكتب السماوية ويفرض على المسلم الإيمان بها ايمانه بالقرآن نفسه..

" (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله)"(١)...

فمن آمن بالقرآن ولم يؤمن بالانجيل والتوراة ـ كما أنزلا من عند الله ـ فهو ليس مسلما..

والقرآن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى المسيح ومحمد عليهما السلام.

"(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)" (٢)..

فمن آمن بمحمد ولم يؤمن بأى نبى آخر ذكره القرآن فهو ليس مسلما..

***

ومن حقائق القرآن التى تدل على شمول عقائده، أنه يعتبر رسالة الأنبياء جميعا واحدة وهى (الإسلام) والاختلاف بين رسالة ورسالة إنما هو اختلاف اقتضته الطبيعة البشرية طبقا لتطور

---

(١)البقرة ـ ٢٨٥. (٢)البقرة ١٣٦

الانسان من مرحلة إلى مرحلة. فإذا كان الانسان يولد طفلا ثم يموت شيخا. وكان لكل مرحلة من مراحل عمره ما يناسبها من الغذاء والتربية. فكذلك كانت الانسانية فى مراحلها الأولى كما قرر ذلك علماء الاجتماع والتربية.

يقول القرآن :

"(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)"(١).

وفى هذا يقول النبى محمد (صلى الله عليه وسلم):

"(مثلى. ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنه. فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)"..

***

ولما كان من معانى الإسلام (الانقياد والخضوع لله) فإن القرآن يعتبر كل مافى هذه الحياة مسلما. لأن كل مافى الحياة خاضع لقوانين الله ومشيئته فى الخلق والحياة..

---

(١) الشورى ـ ١٣

"(وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها)"(١)

بل يعتبر القرآن عالم الحيوان والطير أمة من الأمم. لها حقوق يجب أن تلتزم وتعامل بأسلوب يراعى ويحترم..

"(وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم)(٢)..

وفى هذا يقول نبى الاسلام محمد (صلى الله عليه وسلم):

" (بينما رجل يمشى فى الطريق اشتد عليه العطش. فوجد بئرا فنزل فيها وشرب ثم خرج..

فرأى كلبا يلهث. يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: قد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ بى.

فنزل البئر. فملأ خفه ثم أمسكه بفيه (أى : فمه) فسقى الكلب. فشكره الله. فغفر له.

قالوا ـ أى أصحاب النبى ـ : يارسول الله.. وان لنا فى البهائم لأجرا؟

فقال: " (فى كل ذات كبد رطبة أجر)".. وقال نبى الإسلام (صلى الله عليه وسلم):

"(لاتتخذوا ظهور دوابكم منابر انما سخرها الله لكم لتبلغكم الى

---

(١) آل عمران ـ ٨٣. (٢) الأنعام ـ ٣٨.

بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس)"...

وحين رأى (صلى الله عليه وسلم) أحد أصحابه يحمل طائرا فى يده وتظر أم هذا الطائر تحوم فوق رأسه. اعترض على هذا العمل وقال:

"(من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها)"..

وقال:

"(مامن مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)"..

وفى ضوء هذه التعاليم يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان مالا يخطر على بال أحد..

فهم يقررون: إن نفقة الحيوان واجبة على مالكه. فإن امتنع أجبر على بيعه أو الانفاق عليه..!

بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا:

إذا لجأت قطة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه لأنها لاتستطيع الذهاب إلى مكان آخر..!

وقالوا أيضا:

إن لكل حيوان طاقة خاصة فلا ينبغى أن يحمل حيوان أكثر من طاقته.. وحددوا لكل نوع من أنواع الدواب أقصى مايمكن أن

يتحمله.

وأكثر من هذا: فإن أغنياء المسلمين كانوا يوقفون بعض أملاكهم لرعاية الحيوانات المسنة والمريضة. وإطعام الكلاب والقطط الضالة..

وفى تاريخنا نقرأ قصة أمام اسمه (أبو اسحاق الشيرازى)

هذا الامام كان يمشى فى طريق مع بعض أصحابه. فتعرض لهم كلب كان يمشى فى الطريق، فحاول بعض أصحاب هذا الامام زجر هذا الكلب وارغامه على الفرار والهرب..

فصاح الامام فيهم قائلا:

اتركوا الكلب وشأنه.. أما علمتم أن الطريق مشترك بيننا وبينه..!!

***

إن للمسيحيين واليهود ـ فى الاسلام ـ معاملة خاصة. ومكانه خاصة.. كما يعرفون فى الإسلام باسم "(أهل الذمة)" فهم "(أهل ذمة)" والذمة معناها العهد، والضمان، والأمان، وانما سموا بذلك لأن لهم عهد الله. وعهد رسوله، وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا فى حماية الاسلام آمنين مطمئنين، فلهم ماللمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات.

أول هذه الحقوق هي (الحماية) (١).

وهذه الحماية تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجي.

ومن كل ظلم داخلي(٢).

أما الحماية من الاعتداء الخارجي، فيجب لهم مايجب للمسلمين.

وعلى الامام أو ولي الأمر في المسلمين بما له من سلطة شرعية، ومالديه من قوة عسكرية. أن يوفر لهم هذه الحماية.

وكما يقول بعض الفقهاء:

"(يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يؤذيهم، وفك أسرهم، ودفع من قصدهم بأذى إن لم يكونوا بدار حرب، بل كانوا بدارنا، ولو كانوا منفردين ببلد)".

وعلل ذلك بأنهم : "(جرت عليهم أحكام الإسلام وتأبد عقدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين)"(٣)..

وينقل الامام القرافي المالكي في كتابه (الفروق) قول الإمام

---

(١) انظر في هذا الموضوع. غير المسلمين في المجتمع الاسلامي - د/ يوسف القرضاوي ص٩ ومابعدها - الناشر - مكتبة وهبة - القاهرة.

(٢) انظر كتابنا "لماذا يخافون الاسلام" صفحة ٤٤ ومابعدها.

(٣) مطالب أولي النهى - جزء ٢ صفحة ٦٠٢ و٦٠٣.

الظاهرى ابن حزم فى كتابه (مراتب الاجماع):

"(إن من كان فى الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك، صونا لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله (صلى الله عليه وسلم) فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة(١).. وحكى فى ذلك اجماع الأمة... وعلق على ذلك القرافى بقوله:

(فعقد يؤدى إلى اتلاف النفوس والأموال صونا لمقتضاه عن الضياع ـ انه لعظيم)(٢).

ومن المواقف التطبيقية لهذا المبدأ الاسلامى، موقف شيخ الاسلام ابن تيمية حينما تغلب التتار على الشام، وذهب الشيخ ليكلم "قائد التتر" فى اطلاق الأسرى فسمح القائد التترى للشيخ باطلاق اسرى المسلمين، وأبى أن يسمح له باطلاق أهل الذمة فما كان من شيخ الاسلام إلا أن قال:

لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيرا، لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة،

---

(١) الفروق ـ جزء ٣ صفحة ١٤ : ١٥ ـ الفرق التاسع عشر والمائة.(٢) نفس المصدر السابق. وانظر فى هذا ايضا: غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ـ د. يوسف القرضاوى واهل الذمة ـ د/ قاسم عبده قاسم.

فلما رأى اصراره، وتشدده أطلقهم له.

أما الحماية من الظلم الداخلي :

فهو أمر يوجبه الإسلام ويشدد فى وجوبه، ويحذر المسلمين أن يمدوا أيديهم أو ألسنتهم إلى أهل الذمة بأذى أو عدوان فالله تعالى لا يحب الظالمين ولا يهديهم، بل يعاجلهم بعذابه فى الدنيا أو يؤخر لهم العقاب مضاعفا فى الآخرة، وقد تكاثرت الايات والأحاديث الواردة فى تحريم الظلم وتقبيحه وبيان اثاره الوخيمة فى الدنيا والآخرة، وجاءت أحاديث خاصة تحذر من ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة.

يقول الرسول ·صلى الله عليه وسلم):

"(من ظلم معاهدا أو انتقصه حقا أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة)"(١).

وقال(صلى الله عليه وسلم):

"(من أذى ذميا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة)(٢).

وقال (صلى الله عليه وسلم) أيضا:

---

(١) رواه ابوداود والبيهقى. انظر (السنن الكبرى) جزء ٥ ص٢٠٥.

(٢) رواه الخطيب باسناد حسن.

"(من آذى ذميا فقد اذانى، ومن آذانى فقد اذى الله)"(١).

ولهذا كله اشتدت عناية المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين بدفع الظلم عن أهل الذمة وكف الأذى عنهم، والتحقيق فى كل شكوى تأتى من قبلهم.

وكان عمر (رضى الله عنه) يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له:

"(مانعلم إلا وفاء)"(٢) ـ أى : بمقتضى العهد والعقد الذى بينهم وبين المسلمين وهذا يقتضى أن كلا من الطرفين وفى بما عليه.

وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) ـ يقول:

"(إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا)"(٣).

وفقهاء المسلمين من كافة المذاهب الاجتهادية صرحوا وأكدوا بأن على المسلمين دفع الظلم عن أهل الذمة والمحافظة عليهم.

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن.

(٢) تاريخ الطبرى ـ جزء ٤ صفحة ٢١٨.

(٣) المغنى ـ جزء ٨ صفحة ٤٤٥ ـ البدائع ـ جزء ٧ صفحة ١١١ نقلا عن أحكام الذميين والمستأمنين صفحة ٨٩.

لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة قد التزموا دفع الظلم عنهم، وهم صاروا به من أهل دار الاسلام بل صرح بعضهم بأن ظلم الذمى أشد من ظلم المسلم اثما(١)!!

ثانيا : حفظ النفس :

دم الذمى كدم المسلم، فإن قتل مسلم أحدا من أهل الذمة، اقتص منه كما لو قتل مسلما..

وقد روى أن رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الذمة فرفع ذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال:

"(أنا أحق من وفى بذمته"(ثم أمر به فقتل")(٢)

وفى زمن عمر (رضى الله عنه) قتل رجل من بنى بكر بن وائل رجلا من أهل الذمة بالحيرة فأمر عمر (رضى الله عنه) بتسليم الرجل إلى أولياء المقتول، فسلم إليهم فقتلوه(٣).

وفى خلافة على (كرم الله وجهه) أخذ رجل من المسلمين بقتل

---

(١) ذكر ذلك ابن عابدين فى حاشيته وهو مبنى على أن الذمى فى دار الاسلام أضعف شوكة عادة، وظلم القوى للضعيف أعظم فى الاثم، أنظر فى هذا الموضوع - غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى - د/ يوسف القرضاوى - ص٩..

(٢) العناية فى شرح الهداية - جزء ٨ ص ٢٥٦ - وقد روى الدارقطنى هذا الحديث عن أبى عمر (رضى الله عنه)، وقال : أنا أكرم من وفى بذمته..

(٣) البرهان فى شرح مواهب الرحمن - جزء ٣ ص ٢٧٨.

ذمى، وقامت الحجة عليه فأمر بالقصاص، فجاءه أخو المقتول وقال:

"(قد تركت القود. ولكنه لم يرض بذلك، وقال: لعلهم فزعوك أو هددوك، فقال: لا، بل قد أخذت الدية وأظن أخى لا يعود إلى بقتل هذا الرجل. فأطلق "على" سراح القاتل وقال:

"(من كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا)(١).

وفى رواية أخرى أن عليا (رضى الله عنه) قال:

"(إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا)".

ومن هذا استنبط الفقهاء أنه ان قتل مسلم أحدا من أهل الذمة خطأ، كانت ديته كدية قتله أحدا من المسلمين خطأ..(٢).

***

إن القانون فى الدولة الاسلامية لايفرق بين مسلم وغير مسلم.

---

(١) البرهان ـ جزء ٢ صفحة ١٨٢.

(٢) الدار المختار ـ جزء ٣ صفحة ٢٠٣.

وكتاب (الخراج) ـ صفحة ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، المبسوط ـ جزء ٩ ـ صفحة ٥٧ ـ ٥٨ ويرى الامام مالك "رحمه الله" أن الذمى مستثنى من حد الزنا كحد الخمر، ويستنبط حكمه هذا من قضاء عمر "رضى الله عنه" بأن الذمى أن زنى يترك أمره إلى أهل ملته ـ أى يعمل بقانون أحواله الشخصية. أنظر فى ذلك: حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية لمولانا المودودى.

وقد حدث فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) أن سرق رجل مسلم درعا من بيت رجل مسلم، ثم ذهب السارق بهذه الدرع وأخفاها فى بيت رجل (يهودى)، وعندما اكتشفت الجريمة حاول المسلم السارق التنصل من التهمة والصاقها باليهودى الذى لم يكن يعرف شيئا عن السرقة... ثم شهد أقارب السارق معه ضد اليهودى ورفع الأمر إلى النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)..

إن التهمة ثابتة على اليهودى.. والشهود كلهم ضده.. وأى قاض لابد أن يصدر حكمه بالادانة، وتنفيذ العقوبة.

ولكن الوحى ينزل من السماء.. فينفى عن اليهودى تهمة السرقة، ويدين السارق والشهود بالخيانة.. ويسجل القرآن الكريم هذه الواقعة لتبقى دستورا خالدا إلى يوم القيامة..

"(ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا، ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ومايضلون إلا أنفسهم ومايضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)"(١).

أكثر من هذا..

---

(١) سورة النساء آية ١١٢ و١١٣.

فقد حدث أيام عمر بن الخطاب الخليفة الثانى من خلفاء النبى (صلى الله عليه وسلم)..

إن ـ على بن أبى طالب ـ ابن عم النبى. وزوج ابنتـه.. ووالد أحب الناس إليه، الحسن والحسين، حدث أن تنازع علىّ، مع رجل يهودى حتى بلغ الأمر عمر بن الخطاب، فلما مثلا أمامه فى مجلس القضاء..

قال عمر لعلى: قف يا أبا الحسن..!

فظهر الغضب فى وجه ـ على ـ ؟

فقال عمر : أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك (اليهودى) فى القضاء؟

فقال على: لا.. ولكننى كرهت منك أن عظمتنى فى الخطاب فقلت: يا أبا الحسن.. ولم تصنع مع خصمى اليهودى ماصنعته معى من التعظيم..!!

ومن أشهر وصايا عمر فى العدل تلك الرسالة التى بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى ـ رئيس القضاء ـ فى ذلك الوقت وقوله له:

(آس ـ سو ـ بين الناس فى وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك..)..

هكذا يطلب عمر من القاضى ألا يفرق بين المتخاصمين فى

النظرة.. وفى الكلمة.. وفى طريقة السؤال وهى أمور قد تبدو بسيطة وتافهة..

ولكن هذه الأمور التى تبدو بسيطة وتافهة تترتب عليها أحكام خطيرة..

ثالثا: حماية الأموال:

"ـ... وهذا مما اتفق عليه المسلمون، فى جميع المذاهب وفى جميع الأقطار، ومختلف العصور"...

فقد روى أبو يوسف فى (الخراج) ماجاء فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران..

"ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وملتهم وبيعهم وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير..".

وفى عهد (١) عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح أن: (امنع المسلمين من ظلمهم والاضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها)..

وقد مر بنا قول "على" (رضى الله عنه):

(إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم وأموالهم كأموالنا)

وعلى هذا استقر رأى المسلمين طوال العصور..

---

(١) المراد بكلمة "عهد" هنا ـ الوصية ـ.

فمن سرق مال ذمى قطعت يده، ومن اغتصبه عزر وأعيد المال إلى صاحبه، ومن استدان من ذمى فعليه أن يقضى دينه، فان مطله وهو غنى حبسه الحاكم حتى يؤدى ماعليه.

ويلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم وممتلكاتهم، أنه يحترم مايعدونه. حسب دينهم مالا وأن لم يكن مالا فى نظر المسلمين.

فالخمر والخنزير لايعتبران عند المسلمين مالا متقوما ومن أتلف لمسلم خمرا أو خنزيرا لا غرامة عليه ولا تأديب، بل هو مثاب مأجور على ذلك، ولا يجوز للمسلم أن يمتلك هذين الشيئين لا لنفسه، ولا ليبيعها للغير..

أما الخمر والخنزير إذا ملكها غير المسلم فانها تعتبر عنده مالا، بل من أنفس الأموال ، كما قال فقهاء الحنفية، فمن أتلفها على الذمى غرم قيمتها..!

رابعا: حماية الأعراض:

ويحمى الإسلام عرض الذمى وكرامته، كما يحمى عرض المسلم وكرامته، فلا يجوز لأحد أن يسبه أو يتهمه بالباطل، أو يشنع عليه بالكذب، أو يغتابه، وذكره بما يكره فى نفسه أو نسبه أو خلقه أو خلقه أو غير ذلك مما يتعلق به.

يقول الفقيه الأصولى المالكى شهاب الدين القرافى فى كتاب

(الفروق):

"(إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقا علينا، لأنهم فى جوارنا وفى خفارتنا (حمايتنا) وذمتنا وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ودين الاسلام فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله، وذمة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وذمة دين الإسلام)" (١).

وفى "الدر المختار" من كتب الحنفية"

(يجب كف الأذى عن الذمى وتحرم غيبته كالمسلم)

ويعلق العلامة " ابن عابدين" على ذلك بقوله:

"لأنه بعقد الذمة وجب له مالنا فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبة الذمى بل قالوا إن ظلم الذمى أشد"(٢).

خامسا : التأمين عند العجز والشيخوخة والفقر :

وأكثر من ذلك أن الإسلام ضمن لغير المسلمين فى ظل دولته، كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونهم، لأنهم رعية للدولة المسلمة وهى مسئولة عن كل رعاياها، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

---

(١) الفروق - جزء ٣ - صفحة ١٤ - الفرق التاسع عشر والمائة.

(٢) الدر المختار وحاشية ابن عابدين - جزء ٣ صفحة ٣٤٤: ٣٤٦- طبعة استانبول.

(كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته)"(١)

وهذا مامضت به سنة الراشدين ومن بعدهم.. ففى عقد الذمة الذى كتبه (خالد بن الوليد) لأهل الحيرة بالعراق وكانوا من النصارى:

"وجعلت لهم. أيما شيخ ضعف عن العمل، أو اصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحته جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله)(٢).

وكان هذا فى عهد أبى بكر الصديق، وبحضرة عدد كبير من الصحابة وقد كتب "خالد "به إلى "الصديق" ولم ينكر عليه أحد، ومثل هذا يعد اجماعا..

ورأى عمر بن الخطاب شيخا يهوديا يسأل الناس، فسأله عن ذلك فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأته إلى ذلك، فأخذه وذهب به إلى خازن مال المسلمين وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال مايكفيهم ويصلح شأنهم.

وقال فى ذلك:

"(ما أنصفناه إذا أخذنا منه الجزية شابا، ثم نخذله عند

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر..

(٢) رواه ابو يوسف "الخراج"...

الهرم)"(١)

وبهذا تقرر الضمان الاجتماعي في الإسلام، باعتباره (مبدأ عاما) يشمل أبناء المجتمع جميعا، مسلمين وغير مسلمين. ولا يجوز أن يبقى في المجتمع المسلم إنسان محروم من الطعام أو الكسوة أو المأوى أو العلاج فإن دفع الضرر عنه واجب ديني، مسلما كان أو ذميا.

وذكر الإمام النووي في (المنهاج) أن من فروض الكفاية:

دفع ضرر المسلمين ككسوة عار، أو اطعام جائع اذا لم يندفع بزكاة وبيت مال.

ووضع العلامة شمس الدين الرملي الشافعي في (نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج): " إن أهل الذمة كالمسلمين في ذلك فدفع الضرر عنهم واجب".

ثم بحث الشيخ الرملي "رحمه الله" في تحديد معنى دفع الضرر فقال:

(وهل المراد بدفع الضرر مايسد الرمق أم الكفاية؟ قولان، أصحهما ثانيهما. فيجب في الكسوة مايستر كل البدن على حسب مايليق بالحال من شتاء وصيف، ويلحق بالطعام والكسوة مافي

(١) المصدر السابق ص ١٢٦.

معناهما كأجر طبيب، وثمن دواء وخادم منقطع، كما هو واضح.

قال: ومما يندفع به ضرر المسلمين والذميين فك أسراهم (١).

سادسا : حرية التدين :

ويحمى الإسلام فيما يحميه من حقوق أهل الذمة ـ حق الحرية.

وأول هذه الحريات: حرية الاعتقاد والتعبد: فلكل ذى دين دينه ومذهبه، لا يجبر على تركه إلى غيره، ولا يضغط عليه أى ضغط ليتحول منه إلى الإسلام. وأساس هذا الحق قوله تعالى:

"(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)(٢).

وقوله سبحانه:

"(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)"(٣).

قال "ابن كثير" فى تفسير الآية الأولى: (أى لاتكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه)..

وسبب نزول الآية ـ كما ذكر المفسرون ـ يبين لنا جانبا من إعجاز هذا الدين، فقد رووا عن ابن عباس قال:

---

(١) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ـ للرملى ـ جزء ٨ ص ٤٦ كتاب "السير".

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦. (٣) سورة يونس آية ٩٩.

كانت المرأة تكون مقلاة - قليلة النسل - فتجعل على نفسها ان عاش لها ولد أن تهوده (كان يفعل ذلك نساء يثرب فى الجاهلية) فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار من تهود فقال آباؤهم:

لاندع أبنائنا (يعنون: لاندعهم يعتنقون اليهودية)

فأنزل الله عز وجل هذه الآية:

"(لا إكراه فى الدين)(١).

فرغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهم المحاربين الذين يخالفونهم فى دينهم وقوميتهم ورغم الظروف الخاصة التى دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار، ورغم ما كان يسود العالم كله حينئذاك من موجات التعصب والاضطهاد للمخالفين فى المذاهب، فضلا عن الدين، كما كان فى مذهب الدولة الرومانية التى خيرت رعاياها بين التنصر أو القتل، فلما تبنت المذهب " (الملكانى)" أقامت المذابح لكل من لا يدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم.

لقد قتل الامبراطور (جستنيان) مائة ألف مسيحى قبطى - كما يقول "(توماس أرنولد)"..

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

كان يلقى بهم فى اليم ويحرقون أحياء بغير ذنب،

وقد هرب معظم الناس إلى الصحارى المقفرة فرارا من القهر والظلم ولم يشعروا بالأمن والسلامة إلا بعد فتح المسلمين لمصر..!!!

***

إن الإيمان كما يقول القرآن لا يفرض بالقوة، الإيمان أساسه إقرار القلب، والاعتقاد فيما يؤمن به الإنسان أنه حق.. ولم يعرف عن المسلمين فى أوج سلطتهم وقوتهم أنهم أرغموا أحدا على اعتناق الاسلام من القبط..

بل إن أحد الحكام المسلمين فى مصر رفض دخول الأقباط فى الإسلام حتى لا تنخفض الأموال التى كان يحصلها منهم كجزية..

وحين سمع الخليفة عمر بن عبدالعزيز بذلك كتب إليه مهددا بأن يترك الحرية للناس فيما يختارونه من عقيدة، لأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أرسله الله إلى الناس للهداية لا لتحصيل الجباية والجزية..

يقول المؤرخ الغربى (آدم متز)(١) فى كتابه عن (الحضارة

---

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ لآدم متز ـ ترجمة الدكتور أبو ريدة جزء ١ ص ٨٥ :٨٧.

الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى):

"(ولما كان الشرع الإسلامى خاصا بالمسلمين فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم والذى نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم والروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضا.

وقد كتبوا كثيرا من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل - إلى جانب ذلك - مسائل الميراث - وأكثر المنازعات التى تخص المسيحيين وحدهم مما لاشأن للدولة به.

"(على أنه كان يجوز للذمى أن يلجأ إلى المحاكم الإسلامية ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا.

ولذلك ألف الجاثليق (تيمونيوس) حوالى عام ٢٠٠هـ - ٨٠٠ م - كتابا فى الأحكام القضائية المسيحية " (لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية)..

إلى أن يقول:

"(وفى عام ١٢٠ هـ - ٧٣٨م - ولى قضاء مصر خير بن نعيم - فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارض فيقضى بين النصارى..

ثم خصص القضاء للنصارى يوما يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم، حتى جاء القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر عام ١٧٧هـ فكان أول من أدخل النصارى فى المسجد ليحكم بينهم.

ثم قال (متز):

"(أما فى الأندلس، فعندنا أكثر من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون فى خصوماتهم بأنفسهم، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضى إلا فى مسائل القتل)"..

وبهذا نرى أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه فى دينهم واجبا ولا على فعل أمر يرونه عندهم حراما، ولا على اعتناق أمر دينى لا يرون اعتقاده. بمحض اختيارهم.

***

أما حرية رجال الدين فى طقوسهم: وإبقاء سلطتهم على رعيتهم دون تدخل الدولة فى ذلك، فقد شعر المسيحيون من سكان البلاد بالحرية فى ذلك بمالم يشعروا ببعضه فى حكم الروم، ولعل أحدا منا لاينسى موقف السلطان محمد الفاتح حين استولى على القسطنطينية مقر البطريركية الارثوذكسية فى الشرق كله، فقد أعلن يومئذ تأمين سكانها ـ وكلهم نصارى ـ على أموالهم وأرواحهم وعقائدهم وكنائسهم وصلبانهم وأعفاهم من الجندية، ومنح

رؤساهم سلطة التشريع والفصل فى الخصومات التى تقع بين رعاياهم، دون أن تتدخل الدولة فيها ! فرأى فى ذلك سكان القسطنطينية فرقا كبيرا بين ماكانوا يعاملون به فى عهد البيزنطيين وبين معاملة السلطان محمد الفاتح لهم، إذ كان البيزنطيون يتدخلون فى الخلافات المذهبية ويفضلون أتباع كنيستهم على أتباع الكنائس الأخرى، فارتاحوا إلى الحكم الجديد، وانشرحت نفوسهم لهذا التسامح الدينى الذى لم يعهدوا له مثيلا من أبناء ملتهم الحاكمين من قبل، حتى كان بطريرك الروم بما أعطى من السلطان أشبه بحكومة وسط حكومة، وظل هو وجماعته متمتعين بخير حال نحو خمسمائة سنة وهم مستقلون بالفعل ولا يتقاضاهم استقلالهم جندا، ولا مالا، ومن المؤسف أن هذا التسامح الدينى الذى لا مثيل له فى التاريخ كان مبدأ الامتيازات الاجنبية التى استغلها الغربيون فى أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحاضر استغلالا سيئا للقضاء على مظاهر السيادة الوطنية فى البلاد (١)..

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا:

الاشتراك بالأعياد الدينية بمباهجها وزينتها، فمنذ العهد

---

(١) انظر فى ذلك كتاب (من روائع حضارتنا) ـ د/ مصطفى السباعى ـ صفحة ٨٠ ومابعدها ـ وكتاب (الدعوة الى الاسلام) ـ توماس ارنولد..

الأموى كانت للنصارى احتفالاتهم العامة فى الشوارع تتقدمها الصلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية، وقد دخل البطريرك ميخائيل مدينة الاسكندرية فى احتفال رائع وبين يديه الشموع والصلبان والأناجيل والكهنة يصيحون:

"(قد أرسل الرب إلينا الراعى المأمون" الذى هو مرقص الجديد" ـ وكان ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك..

وجرت العادة أيام الرشيد بأن يخرج النصارى فى موكب كبير وبين أيديهم الصليب وكان ذلك فى يوم عيد الفصح..

ويذكر لنا "المقدسى" فى "أحسن التقاسيم": (إن الأسواق فى "شيراز" كانت تزين فى أعياد النصارى، وأن المصريين كانوا يحتفلون بعيد زيادة النيل فى وقت عيد الصليب، ويذكر لنا "المقريزى" فى "خططه": أن الناس ـ فى عهد الأخشيديين(١) ـ كانوا يحتفلون بعيد الغطاس احتفالا كبيرا، ففى عام ٣٣٠هـ جرى الاحتفال بعيد الغطاس احتفالا رائعا، وجلس محمد بن طغج الاخشيدى بقصره المختار فى جزيرة المنيل، وقد اسرج حوله ألف قنديل، وجاراه الشعب فأوقد المشاعل والقناديل والشموع.

---

(١) الدعوة إلى الاسلام ـ توماس أرنولد ـ الطبعة العربية.

يقول المستر (داربر) الأمريكى المشهور:

"(إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن إليهم على مجرد الاحترام، بل فوضوا اليهم كثيرا من الاعمال الجسام ورقوهم فى مناصب الدولة، حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت امره (ابن ماسويه)، ولم يكن ينظر إلا الى مكانته من العلم والمعرفة.

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر (ولز) فى صدد بحثه عن تعاليم الإسلام:

"(إنها اسست فى العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وانها لتنفخ فى الناس روح الكرم والسماحة كما انها انسانية السمة، ممكنة التنفيذ، فقد أقامت مجتمعا انسانيا لا تعصب فيه بسبب التفرقة فى الدين).

ويقول السير (مارك سايس) فى وصف الامبراطورية الاسلامية فى عهد الرشيد:

"(وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون فى خدمة الحكومة).

ويقول (ليفى بروتستال) فى كتابه " أسبانيا الاسلامية فى

القرن العاشر:

"(إن كاتب الذمم كثيرا ماكان نصرانيا أو يهوديا، ـ أى من اليهود والنصارى ـ وقد كانوا يتصرفون للدولة فى الأعمال الادارية والحربية، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربية).

ويقول (رينو) فى تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط:

"(إن المسلمين فى مدن الاندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختتنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير)..

إننا نحن المسلمين نؤمن ونعتقد(١)
أن الأديان السماوية كلها تستقي من معين واحد..

"(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا، والذى أوحينا إليك، وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسي أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (٢).

ونؤمن ونعتقد ، أن الأنبياء أخوة لا تفاضل بينهم من حيث الرسالة وأن على المسلمين أن يؤمنوا بهم جميعا إيمانهم بمحمد..

"(قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب، والاسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وماأوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)"(٣)

---

(١) رسالة إلى البابا - للباحث دار المختار الاسلامى - القاهرة

(٢) الشورى - الآية ١٣.

(٣) البقرة - الآية ١٣٦.

ونحن نؤمن ونعتقد:

"(إن الإسلام دين ذو شعب أربع هي:

العقيدة والعبادة والأخلاق والشريعة).

فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضهما الإسلام على أحد:

"(لا إكراه فى الدين)(١)

"(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)(٢)

وقد نزلت الآية الأولى فى شأن رجال من الأنصار لهم أبناء على الديانة اليهودية أو النصرانية، فأرادوا أن يجبروهم على تغيير دينهم إلى الإسلام.. فنزلت الآية قاطعة مانعة ـ كما سبق أن قلنا:ـ

"(لا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى)"(٣).

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم ويقيمون شعائرهم، فى حرية وأمان ، كما هو منصوص عليه فى العهود التى كتبت فى عهد أبى بكر وعمر، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء (القدس)".

ومن شدة حساسية الإسلام أنه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦..

(٢) سورة يونس آية ٩٩...

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٦..

غير المسلمين لما لهما من صبغة دينية باعتبارهما من عبادات الإسلام الكبرى - مع أن الزكاة ضريبة مالية والجهاد خدمة عسكرية.

أما الأخلاق فهي — في أصولها :

لاتختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض ، فجميعها تدعو إلى العدل والرحمة والاحسان والمحبة والعفاف والشجاعة والسخاء، والتعاون على الخير..

فالزنا - مثلا - محرم فى هذه الديانات كلها..

والمسيح يقول: " (من نظر بعينه فقد زنا)"

والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول:

"((العينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش... .). ".. الغ.. والميسر، وأكل مال اليتيم، والقسوة على الضعفاء وغير ذلك من الرذائل تحرمها كل الأديان.

بقيت الشريعة التى تنظم علائق الناس بعضهم ببعض

- علاقة الفرد بأمته، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالدولة، وعلاقة الدولة بالرعية وبالدولة الأخرى.

فأما العلاقة الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك فهم مخيرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا ولا يجبرون

على شرع الإسلام باعتبار هذه (الأحوال الشخصية) كما تسمى مما له علاقة مباشرة بالدين، وقد أمرنا بتركهم ومايدينون (لا إكراه فى الدين)..

فمن اختار منهم نظام الإسلام فى المواريث - مثلا - كما يحدث فى بعض البلاد العربية فله ذلك، ومن لم يرد فهو ومايختار..

وأما ماعدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم فى ذلك كشأنهم فى آية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق وترتضيها الأغلبية،

وفي العقوبات — قرر الفقهاء — :

إن الحدود لا تقام عليهم إلا فيما يعتقدون تحريمه كالسرقة والزنى. لا فيما يعتقدون حله كشرب الخمر.

يقول (بريفولت) فى كتابه " بناة الانسانية"(١):

"(إن الحكومة الإسلامية، لم تكن أبدا متعسفة ولا متعصبة فلا أظلام، ولا قمع لحرية الفكر، ولا محاربة لمواهب العلم ، وثورة المعرفة والبحث وإن سماحة الإسلام مع أبناء الشعوب المغلوبة فى الحرب، وعدلهم ونزاهتم، ومثاليتهم يكشف الصورة العكسية لطغيان الرومان وتعصبهم..

---

(١) بناة الانسانية (MAKING OF HUMANITY)

غير أنه مما يثير التعجب والألم ـ كما يقول الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ـ شيخ الأزهر الأسبق ـ فى رسالته إلى المؤتمر العالمى (للإخوة الإنسانية) الذى انعقد فى "لندن" عام ١٣٥٥ هجرية ـ الموافق ١٩٣٦ ميلادية ـ وكانت أهداف هذا المؤتمر كأهداف هذا المؤتمر ... .

لقد قال الأستاذ الأكبر فى رسالته إلى هذا المؤتمر:

"(إنه لما يثير التعجيب والألم إن أهل الأديان يحشدون جنودهم ويعدون عدتهم لمقاتلة بعضهم بعضا مقاتلة أسرفوا فيها، وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك، وسلكوا طرقا فى التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق، مما جعلهم سخرية أمام العلماء وأمام الفلاسفة، وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج، فقد تركوا التأثير على الانسان من ناحية عقله الذى هو موضع الشرف، وموطن العزة والكرامة، واستعملوا طرق الاكراه والاغراء بالمال وغيره من الوسائل، وركن بعضهم إلى القوى المادية للدول ونسوا أن الإيمان لا يحل القلب بالاكراه، وأن العلم لا ينال إلا بالدليل، ونسوا أن العدو جاد فى انزالهم من مكانهم اللائق بهم، وأن شرور العالم تغمر الانسانية، وتطغى على مابقى فى النفوس من هيبة واحترام للنظم الإلهية،

وكان عليهم بدل هذا كله أن يتعاونوا على درء الخطر وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة وهذه الاباحية التى يئن منها العقلاء من البشر..

***

والذى قاله الاستاذ الأكبر فى مؤتمر "لندن" ـ حقيقة.. ولكنها حقيقة مرة ومؤلمة فلا تزال.. بذور العداوة والكراهية كامنة.. ولا تزال الحرب ضد الإسلام والمسلمين معلنة فى كل مكان من الدنيا.. ولن يكون التسامح حقيقة واقعة ما لم نقف وقفة واحدة لاقتلاع جذور البغضاء والكراهية.

فى عام ١٩٧٨م تلقى الامام الأكبر الشيخ عبدالحليم محمود شيخ الأزهر رسالة من الدكتور (ميجيل إيبالثا) سكرتير عام "جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية فى أسبانيا " يقول فيها:(١)

يسر جمعية الصداقة الإسلامية ـ المسيحية فى مدريد أن تتوجه إلى فضيلتكم لتشرف باخباركم بما استقر عليه الرأى من انعقاد مؤتمر "قرطبة العالمى الإسلامى ـ المسيحى الثالث خلال عام ١٩٧٩م " إن شاء الله" وقد رأت إدارة الجمعية اختيار موضوع:

---

(١) وقد عقد قبل ذلك حوار بين الفاتيكان والأزهر لتحقيق هذا التفاهم والتقارب لم يسفر عن تقدم حقيقى واضح ـ انظر فى هذا :"رسالة الى البابا بولس السادس" ـ لكاتب البحث.

(محمد وعيسى ملهمان للقيم الاجتماعية المعاصرة) ليكون محور اللقاء الاسلامى ـ المسيحى المقبل والمقصود أن يشرح المسلمون كيف يعبر النبى محمد "صلى الله عليه وسلم) عن هذه القيم المعاصرة بالنسبة لمسلمى اليوم، سواء برسالته وعقيدته ودعوته أو بشخصيته وسلوكه ونفسيته المثالية، بينما يشرح المسيحيون كيف يعبر عيسى "عليه السلام" عن القيم الاجتماعية نفسها عند مسيحى اليوم..

ورغبتنا أن يدرس هذا الموضوع مجموعة ممن يعيشون فى مجتمع متكامل يعيش بالمودة والوفاق وان اختلفت عقائد مواطنيه وتنوعت أديانهم.

وسوف يتولى عملية تنظيم واعداد المؤتمر من الجانب المسيحى الكليات المتخصصة فى علوم اللاهوت ـ نذكر منها بصفة خاصة ـ كلية اللاهوت بمدريد، والجامعة البابوية فى روما، ويعد الموضوع ـ بمشيئة الله ـ مع الجانب الاسلامى الجامعات المتخصصة فى بعض البلدان الإسلامية ومؤسسات إسلامية وشخصيات مسلمة، يستوى في ذلك من يعيشون داخل أسبانيا ، ومن يقيمون خارجها..

ونعتقد أنه من الممكن دراسة رؤوس الموضوعات التالية فى نطاق الموضوع العام للملتقى وهى:

الحرية والعدالة والمساواة فى مختلف مظاهرها وجوانبها المتعددة فى هذا الدين أو ذاك، ولا يعنى هذا ـ بطبيعة الحال ـ أن هذه هى الكلمة النهائية ، على العكس، نحن نتوجه إليكم منذ الآن وفى لحظة ـ نشأة الفكرة آملين أن تثروا الموضوع بما تقترحونه وأن تتفضلوا بإضافة ماترونه مفيدا ونافعا ، ولسنا نشك فى أنكم ستزودوننا بسديد الرأى وصائبه ـ بإذن الله ـ فأنتم أدرى بهذا الحقل منا ولكم فى هذا الميدان خبرة قد لا تتوافر للكثير بحكم احتكاكم بالمجتمعات وجهودكم فى القارات المختلفة وقد سبق أن شرفتونا حين تفضلتم بإيفاد وفد مثل بلادكم فى مؤتمر قرطبة الإسلامى ـ المسيحى الأول الذى عقد فى عام ١٩٧٤م..

ومانبغيه فى هذه المرحلة ـ مرحلة الاعداد والدراسة ـ هو النصيحة وتبادل الرأى والاستفادة بالمشورة دون الزام أو التزام بحضور المؤتمر، وسوف نتصل بكم فى مرحلة أخرى ـ إن شاء الله ـ من أجل توجيه الدعوة لحضور جلسات الملتقى نفسه إذا رغبتم فى ذلك.

وقد رد الإمام الأكبر.. على "الدكتور ميجيل ـ موضحا وجهة نظر الأزهر بالنسبة لهذا المؤتمر وغيره من المؤتمرات المتشابهة ـ فيما يلى:ـ

أولا: ـ ان الاسـلام ـ منذ أن بدأ ـ أعلن تقـديره واحـتـرامـه لعيسى وأمـه، أمـا عيـسى "عليـه السـلام" فـهـو وجيـه فى الدنيـا والآخرة. وأما أمه فهى صديقة . ووجود عيسى "عليه السلام" جزء من إيمان المسلم وبراءة أمه وطهرها جزء من إيمان المسلم..

فـمـاذا لقى المسلمـون من المسـيـحـيين فى مـقـابل ذلك أنه أمـر يصعب قوله..!!!

ثانيا: لابد من الاعتراف بالدين الاسلامى وبرسوله حتى ينال المسلمـون فى أوروبا مـايناله غـيـرهم من الاعـتـراف بأعـبـادهم وبشـعـائرهم، وأنه لا يتـأتى التـفـاهم بين أتبـاع رسـول يحـتـرمـه المسلمـون هو عـيـسى "عليـه السـلام" وأتباع رسـول لا يعـتـرف به المسيحيون وهو "محمد" صلى الله عليه وسلم)..

ثالثا: كان يجب على المسلمين والمسيحيين أن يعملوا معا على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والالحاد وكان يجب أن يسيروا معا فى خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة ولكن للأسف ـ يسير المسيحيون فى طريق تنصير المسلمين بقوة: فهم يعملون ليل نهار على أن ينصروا المسلمين فى كل مكان فى العالم.

وكل الدول الغـربيـة وأمريكا ترسل ارسـاليات لتنصيـر المسلمين باسلوب مكشوف واضح أو بأسلوب خفى مسـتـور. بل تجاوز الأمر

حدود القول والكلمة الى الحرب وإباحة دماء المسلمين.

حدث هذا فى "نيجيريا" ضد القيادة الإسلامية ممثلة فى قتل (أحمد بلو) و(أبو بكر باليوا).. وحدث هذا فى (أوغندا) حين قتل "ميلتون أوبتوتى".

أكثر من نصف مليون.. !!

وحدث هذا فى "تنجانيقا" أو فيما يعرف الآن باسم "تنزانيا" بعد اغتصاب جزيرة (زنجبار) بتخطيط من الكنيسة، وبقيادة القس جوليوس ناريرى وبعلم وتآمر من السلطة البريطانية".

لقد قتل من المسلمين فى هذه المذبحة أكثر من خمسين ألفا..!!

ومايحدث فى جنوب السودان فى أيامنا هذه.. جزء من هذا المخطط الذى يستهدف تقسيم السودان وتمزيقه أربا..

وما أعلن فى مؤتمر "كلورادو".. بضرورة تنصير المسلمين فى العالم خلال خمسين سنة ينفى صدق أية محاولة من جانبكم لتحقيق أى تفاهم وتقارب، مالم يقم دليل عملى لايقاف هذه التصرفات التى تسىء إلى المسيحيين قبل المسلمين..

رابعا: إن المسلمين أقليات فى بعض الأقطار المسيحية.. وهذه الأقليات المسلمة ينكل بها باسم المسيحية:

تؤخذ أرضها وييتم أطفالها ويترمل نساؤها ولا تجد إلا ارتياحا

فى نفوس الأغلبية المسيحية ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين فى الأقطار التى بها الأغلبية المسيحية:

نحب أن ينتهى ذلك..

إن لم يكن باسم الدين فليكم باسم الانسانية على الأقل..

***

إن التسامح ليس معناه أن تدير خدك الأيسر لمن صفعك على خدك الأيمن..

التسامح يعنى العدالة.. كما يعنى الاخاء والمساواة والحرية.

***

لقد كان الأمير "تشارلز" ولى عهد بريطانيا "شجاعا وأمينا عندما وقف يقول فى محاضرته الشهيرة بجامعة أكسفورد عن الاسلام والغرب.

قال:

"(هناك سوء فهم شديد بين العالمين الإسلامى والغربى هذا الواقع يدركه كل انسان هنا فى بريطانيا.

إننا لانستطيع انكار المآسى التى يتعرض لها المسلمون فى العالم وبخاصة فى "البوسنة والهرسك".

وإنه من الغريب أن يستمر سوء الفهم حتى يومنا هذا بالرغم

من أن المسلمين والمسيحيين واليهود أصحاب كتاب سماوى وديانة سماوية، وإننا جميعا نشترك فى قيم واحدة. منها احترام المعرفة والعمل والرحمة والوفاء والبر بالوالدين، لقد وقفت مبهورا أمام كلمة "ولا تقل لهما أف"(١)..

لأن مجتمعنا فى أشد الحاجة إلى هذا الوفاء والبر.

إن مناهج التعليم فى بلادنا تمجد أبطال الحروب الصليبية بينما كانت هذه الحروب تمثل عند المسلمين أقصى درجات التوحش والهمجية..

وإذا كان تاريخ الفتوحات العثمانية يمثل همجية عند الغرب. فإن هذه الهمجية عادت مرة أخرى إلى بلاد المسلمين على أيدى قوات أوروبا التى أخضعت معظم بلاد المسلمين لحكم أوروبا فى القرن الماضى وحتى منتصف هذا القرن.

إننا ننظر إلى الإسلام من خلال بعض الفتن والاحداث التى يثيرها البعض كما حدث فى لبنان، ومن خلال مايسمى بالأصولية الإسلامية.

وهنا ـ أيها السيدات والسادة ـ خطأ جسيم..

لأن فى بريطانيا نفسها تقع مثل هذه الاحداث. فهل نحكم

(١) يقصد الآية الكريمة التى جاءت فى سورة الاسراء للبر بالوالدين آية رقم ٢٣.

على بريطانيا مثل هذا الحكم بسبب قلة منفلتة ضد العدل والقانون.

إن الحكم على الشريعة الاسلامية بالقسوة حكم بعيد عن الانصاف فعلينا أن نفرق بين الشريعة كنظام وقانون وبين التطبيق الذى يخضع لأغراض سياسية لاتحترم القانون ولا الدستور.

إن الحكم على وضع المرأة فى العالم الإسلامى من خلال بعض التصرفات المتزمتة لا يعنى أن المرأة مظلومة أو مقهورة فى مجتمعات المسلمين، لقد تمتعت المرأة بحقوقها فى الإسلام قبل أن تتمتع به المرأة فى سويسرا وقد أعطى الإسلام حقوقا للمرأة لاتتمتع بها فى أوروبا..!!

وفى العالم الإسلامى اليوم ثلاث نساء رؤساء لثلاث دول هى باكستان. وتركيا. وبنجلاديش. وقد جئن بانتخابات ديمقراطية سليمة.. فأين هو الظلم الذى يقع على المرأة. كما أنه لايجوز أن ننكر على المرأة المسلمة ارتداءها الحجاب مادام هذا من صميم دينها وتقاليدها.!!

إن علينا أن نميز بين الأصولية المتطرفة وبين (الصحوة) الدينية التى تجعل المسلمين يتمسكون بقيمهم ومثلهم العليا.

إن التطرف ليس حكرا أو خاصا بالمسلمين. فعلى الجانب الآخر

هناك تطرف مسيحى وتطرف يهودى بنفس الدرجة.. !!

لقد أسدى المسلمون خدمات كبرى الى الحضارة والثقافة .

لقد كان المسلمون وعلى مدى ثمانية قرون هم أساتذة العلوم والحضارة والفن والثقافة وقد كانت (قرطبة) فى القرن العاشر أكثر المدن تحضرا فى أوروبا ..!!!

وقد كان الإسلام فى العصور الوسطى هو المثل الأعلى للتسامح فقد منح المسلمون: اليهود والمسيحيين حقوقا متساوية وفتحوا لهم طريق الترقى إلى أرقى المناصب فى الدولة.!

إن الاسلام يقدم لنا صورة متكاملة للتفاهم والتعايش بين جميع البشر.!

كما أن الاسلام فى حقيقته وجوهره يقدم لنا تصوره الرائع للحياة والكون.!

وقبل أن أنهى محاضرتى أؤكد بقوة على القضايا التى أثرتها وحتى لايصل الغرب إلى درجة الصدام بينه وبين الإسلام فإنى أطالب بقوة إلى منع هذا الصدام..

فلدى الإسلام والغرب مايقدمه كل منهما إلى الآخر.

فعلينا أن نعمل كى يفهم بعضنا بعضا وأن نقضى على أشباح الشك والخوف.. وفى هذا كل الخير للعالم جميعا "أ.هـ.

وبعد: فاسمحوا لى أيها السادة أن أحيى ذكرى رجل عظيم بهذه المناسبة..

انه (تولستوى) الذى ينعقد مؤتمرنا تحت شعار من شعاراته التى رفعها قبل مائة سنة، والذى كان فى حياته تجسيدا لروح هذا المؤتمر الذى ينعقد فوق أرض وطنه..

لقد قال (تولستوى) فى حديثه عن الإسلام ونبى الإسلام:

لقد وضع الإسلام أسسا جديدة للمساواة والعدالة لم تكن معروفة من قبل ومن فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيرا بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم. فقد أمر بحسن معاملتهم. وقد بلغ من حسن معاملته لهم أنه سمح لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى.. ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية مافى هذا التسامح العظيم.. من بر ووفاء ومحبة..

ولا ريب أن النبى محمد كان من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا. ويكفيه فخرا أن فتح لها طريق الرقى والتقدم وهذا عمل عظيم لايفوز به الا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما..

ورجل مثله جدير بالاجلال والاحترام.. أ.هـ..

ولقد كانت آراء هذا الفيلسوف الروسى موضع تقدير الاستاذ الشيخ محمد عبده ـ مفتى المسلمين الأكبر ـ فكتب لهذا الفيلسوف يقول:ـ

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى:

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف من روح سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الله الناس عليها وإلى الغاية التى هدى البشر إليها، فأدركت إن الانسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم. ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه.. وسعيا يبقى ويربى جنسه. وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة..

ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد. ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد.. ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ماهداك الله إليه. وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه. فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم. وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثلك فى العمل أماما يقتدى به المسترشدون.

بهذه الروح.. روح تولتسوى العظيم. وروح مفتى المسلمين الأكبر الشيخ محمد عبده فى مطلع القرن العشرين..

بهذه الروح.. نجعل المحبة كامنة فينا ـ كما قال (يوحنا) ـ فى رسالته الأولى.

لا مخافة فى المحبة. بل المحبة الكاملة تنفى المخافة..

فإذا قال واحد منا أنه يحب الله.. وفى الوقت نفسه يكره أخاه.. فهو كاذب ..

لأنه إذا كنت لا تحب أخاك الذى تراه فكيف تزعم أنك تحب الله الذى لا تراه(١)..!!!

دكتور عبدالودود شلبي
القاهرة

---

(١) الكتاب المقدس ـ العهد الجديد ـ رسالة يوحنا الأولى..

رقم الايداع ٩٥/ ٧٩٠٧
977-220-113-5

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١